

عقم الاتجاه الوضعي في التاريخ عند ر.ج. كولنجوود(*)

بقلم أ. خديجة زيتلي

أستاذة بمعهد الفلسفة - جامعة الجزائر -

1- المدرسة الوضعية ومبحث التاريخ

إن تناول التاريخ بالمفهوم الذي عولج به في القرن التاسع عشر كان هدفا لنقد كولنجوود ولمعارضته ، فقد رفض هذا الأخير التفسيرات التي كانت سائدة عن التاريخ والتي تستمد وجودها من المذهب الوضعي الذي وضع مبادئه آنذاك

أوجست كونت (1857 - 1798) (AUGUSTE COMTE) الذي كان قد خص التاريخ بتفسير جديد ، بل العلوم الإنسانية قاطبة ، وهذا التفسير لا يخرج أبدا عن الإطار الذي رسمه هذا الفيلسوف الوضعي وينبثق عنه أن العلوم الإنسانية ، أو ما يطلق عليه بالعلوم الاجتماعية ، تخضع لنفس خصائص العلم ، وتطبق عليها نفس مناهجه . والتاريخ بدوره لا يخرج عن إطار هذا التنظير.

ويذهب الاتجاه الوضعي الى ان الوقائع التاريخية لا تختلف عن الوقائع الطبيعية ، وأن نهاية البحث في التاريخ سيقودنا حتما الى وضع قوانين للتغير التاريخي والتطور الانساني ، هذه القوانين تمكنا من وضع تنبؤات للمستقبل. وهنا لا يتأخر أوجست كونت في تقديم براهينة لجعل الدراسات الانسانية تنتهج - كما زعم - نفس منهج العلوم الطبيعية فقد قال في إحدى رسائله الموجهة الى (VALAT) بأنه سيقدم برهانا فعليا على وجود قوانين محددة لتطور التاريخ الانساني مثل ماهو الحال في قوانين سقوط الحجارة ، ويعني بأنه يستطيع أن يبرهن أن ما يطبق من منهج على الدراسات الانسانية هو نفسه الموجود في العلوم الطبيعية او الفيزيائية ، ومن ثمة فلا فرق بين علم من العلوم الانسانية كالتاريخ مثلا وبين قطعة جامدة كالحجر.(1)

لقد ارادت هذه العقيدة الفلسفية المقترحة في نهاية القرن التاسع عشر ، الغاء الاختلافات المنهجية بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية والوصول الى

توحيد منهجهما ، لإنهاء النزاعات المعرفية بذلك ، ولكن هل كان الحل في
توحيد المنهج ؟

لقد جاء الرد على الفلسفة الوضعية من قبل بعض الفلاسفة ومن بينهم
الايطالي كروتشه البذي رد على طريقة الكتابة الوضعية في التاريخ وانتقدها
بشدة في الكثير من كتاباته.

ويستغرب كروتشه من طريقة معالجة التاريخ عند تين (**) (TAINE)
على سبيل المثال ، وما توصل اليه في أبحاثه ! فهل يمكن القول مع تين بأننا في
الوقائع التاريخية يمكن التحدث عن وقائع "كلية" أو "دائمة" ؟ إن هذا القول غير
مقبول عند كروتشه ، لأن الوقائع الانسانية والتاريخية تختلف ، وتختلف بذلك
اسبابها ، إذ لا نستطيع أن نتحدث عن قوانين مشتركة عند دراسة "السلالة" أو
"القرن" . ألم ينتبه تين - على حد تعبير كروتشه - الى أن "النقد يريد معرفة
اصل الوقائع أو مجموعة الوقائع والتي نسميها بمصطلحات مثل "قرن" أو
"سلالة" . وبما أن النقد يريد معرفة نشأة [الوقائع] فإنه يبين بوضوح بأنها
ليست "كلية" و"لادائمة" . (2)

إن الوقائع التاريخية إذن ليست "كلية" و "لا دائمة" طالما تخضع لمجموعة
من المتغيرات النفسية والاجتماعية والشخصية والزمانية ايضا . وبهذا يستحيل
الحديث عن القانون في التاريخ . وبما أن الوقائع التاريخية تتشكل بعامل النقد فلا

يمكن أن نحصل على نقد موحد ، ثم ان النقد يتطلب الاختلاف في وجهات النظر ، الشيء الذي يدفعنا الى القول بأنه لا يمكننا الحديث عن مسألة التعميم في الحوادث التاريخية - هذا التعميم الذي تستسيغه المدرسة الوضعية - لانه لا قانون كلي مع الوقائع الانسانية والتاريخية المختلفة.

وفي الحقيقة فان العقيدة الوضعية لم يكن تأثيرها مقتصرًا على الحدود الجغرافية التي أنجبتها بل سرعان ما امتد تأثيرها الى مناطق أخرى من القارة الأوربية والأمريكية وتحمس لمبادئها ودافع عنها فلاسفة ثم دعوا إليها من خلال كتاباتهم.

فقد حاول بعض هؤلاء تطبيق المنهج الوضعي على الدراسات الانسانية ، وكان من بين هذه الدراسات تلك الابحاث التاريخية التي قام بها مثلاً المؤرخ الانجليزي باكل الذي حاول جعل التاريخ يقتفي أثر العلم الطبيعي ، وقد قال بهذا الصدد : "إنني آمل أن أحقق لتاريخ الإنسان شيئاً مكافئاً أو مماثلاً لما حققه الباحثون لمختلف فروع العلم الطبيعي". (3)

وكان ج.م.ل. (J. STUART. MILL) (1806 - 1873) قد قام برد الظواهر الاجتماعية الى ظواهر طبيعية ايضاً وراح يقول في هذا السياق : "كل ظواهر المجتمع هي ظواهر للطبيعية البشرية وهي ناتجة عن فعل الظروف الخارجية وتأثيرها على جموع الناس ، وعليه فإذا كانت مظاهر التفكير

والاحساس والفعل عند الناس موضوعا لقوانين ثابتة فإن الظواهر الاجتماعية لا يمكنها إلا أن تخضع لقوانين ثابتة تبعا لسابقتها". (4)

وفي القرن العشرين إهتم كارل همبل (CARL HEMPEL) إهتماما كبيرا بإثبات أنه بقدرتنا أن نتحدث عن قوانين عامة في التاريخ في كتابه ASPECTS OF SCIENTIFIC EXPLANATION وهذا في الفصل ، "وظيفة القوانين العامة في التاريخ" "THE FUNCTION OF GENERAL LAWS IN HISTORY" إذ يؤكد همبل في مقدمة هذا المقال بأن "القوانين العامة لها وظائف في التاريخ ماثلة لوظائفها في العلوم الطبيعية ، وأنها تمثل أداة لا يستغنى عنها في البحث التاريخي". (5)

ففي العلوم الطبيعية عند ما نتحدث عن القوانين فإن ذلك يعني أن هناك مجموعة من الأسباب تسببت أو أدت الى وقوع حادثة ما ، فالماء يغلي مثلا بسبب الحرارة ، أي حادثة غليان الماء ولترمز لها مثلا بالرمز (س) حدثت بسبب الحرارة ولترمز لها بالرمز (أ) ، ويصبح بذلك (س) و(أ) هما النتيجة والسبب ، إذن "الوظيفة الأساسية للقوانين العامة في العلوم الطبيعية هي ربط الحوادث وجعلها في نظام غالبا ما يطلق عليه التفسير أو التنبؤ". (6)

وحسب همبل فإن هذه الافكار "تنطبق على التفسير في التاريخ" (7) ويعني بذلك أن الحديث عن القوانين في التاريخ هو أمر وارد مثل ماهو موجود

021 74 93 12
021 28 62 46

في العلوم الطبيعية "ذلك أن التفسير التاريخي ايضا يهدف الى تبيان أن الحادثة موضوع الدراسة لم تكن "محض الصدفة" بل كانت متوقعة بناء على بعض الشروط السابقة أو المتزامنة ، وليس التوقع المذكور نبوءة أو كهانة ، بل هو توقع علمي عقلاني قائم على افتراض قوانين عامة". (8) هكذا يتحدث همبل عن القانون في التاريخ فعلى الرغم من أن الكثير من الفلاسفة أنكروا وجوده وخاصة اذا كان الامر يتعلق بدراسة كالتاريخ فان همبل يحاول أن يثبت وجوده.

عارض كولنجوود بشدة محتوى الفلسفة الوضعية ورفض ان يكون التاريخ مرادفا للطبيعة وفي هذه المسألة ينتهي الى القول " كان من الضروري... أن نعرض بالتفنيد المتواصل لما يمكن ان نسميه فكرة "وضعية" او بتعبير ادق فكرة وضعية خاطئة عن التاريخ ، تذهب الى انه دراسة الاحداث المتعاقبة التي طواها ماض سحيق - احداث تفهم على الصورة التي يفهم بها رينيل العلم احداث الكون المادي... - وهذا التفسير الخاطئ لموضوع التاريخ، لا يعبر عن خطأ استقر في التفسير الفلسفي الحديث عن التاريخ فحسب ، ولكنه خطر دائم على التفكير التاريخي نفسه". (9)

ان تأويل التاريخ في ظل هذه النظرية مرفوض وهذه التنظيرات الوضعية للتاريخ المكرسة لعزله عن طبيعته هي الاخرى مرفوضة ، اذ لا يعقل ان يفهم

النشاط الذي يبذله الانسان في عالم يحكمه التغير المستمر - لالثبات - فهما خاطئا ذلك لانه "نشاط يصدر عن الارادة الحرة ، فلا توجد هناك قوى غير هذا النشاط تتحكم في هذا العالم". (10)

لم يتفطن الوضعيون الى ان العامل الهام في الصيرورة هو الارادة الحرة عندما اعتبروا التاريخ مجرد تجميع لاحداث متعاقبة ومتراكمة يتم ادراكها بالطريقة نفسها التي تدرك بها العلوم الطبيعية ، ولا يعدو هذا الادراك ان يكون مجرد ادراك للعلاقات الخارجية بين الاحداث للوصول الى تفسير نهائي. يختلف التاريخ كلية عن الطبيعة ، اذ هو عبارة عن احداث لها "باطنها" ونقصد بالباطن هنا مجموع العلاقات الانسانية المعقدة (علاقات سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، فكرية...) ولذلك يتعين على المؤرخ ان يغوص في هذه الظواهر التي تدخل في تشكيل الاحداث التاريخية. وفي ظل هذا الموقف المنهجي فان الطريقة المتبعة عند الوضعيين ، والتي تعتمد على الوصف ، لاتكون لها أي نتائج معرفية فعالة.

ان موضوع الطبيعة يختلف عن موضوع التاريخ، وهذا الاختلاف في الموضوع يقود بالضرورة الى الاختلاف في المنهج ، ولذلك فالطبيعة عند كولنجرود هي مجرد "احداث" أما التاريخ فهو "الافكار"، الذي يهمننا في العلم هو ادراك العلاقات الخارجية للاشياء معتمدين الوصف ، اما في التاريخ فالمهم هو

اكتشاف الفكر المتضمن في التاريخ ، لان التاريخ هو افعال البشر وحيث لا فعل لاتاريخ ، وهو معنى عبارة كولنجوود "كل تاريخ هو تاريخ فكر" ان التاريخ اذن لا يرقى الى العلم بتطبيق منهج العلوم الطبيعية بل يستطيع تحقيق علميته التي تتلاءم وموضوعه بأدوات معرفية اخرى.

وبلغ نفور كولنجوود من الطريقة التي عولج بها التاريخ على أيدي المدرسة الوضعية حد التهكم والسخرية وقال عن مساعي الوضعيين في هذا الصدد بأنهم : "أرادوا تجريد التاريخ من الفلسفة واعتباره علما تجريبيا كعلم الارصاد الجوية". (11)

تحمل أطروحات كولنجوود في هذا السياق ثورة على المدرسة الوضعية، فقد حاول حماية التاريخ من هجمات الوضعيين والمدارس الفلسفية التي تتبنى هذا الطرح. ونشير هنا الى انه يرفض ايضا معالجة التاريخ على الطريقة التي قصدها عصر التنوير - القرن الثامن عشر - هذا العصر الذي كان من بين اهدافه تطبيق المنهج العلماني على جميع العلوم ومن بين هذه العلوم التاريخ. فمفكرو هذا القرن حاولوا وضع منهج يبحث في العقل بنفس الطريقة التي يبحث بها العلم الطبيعي "ولم يفتنوا الى استحالة التناسق العام بين الدراستين". (12)

نستشف من نصوص كولنجوود تميزه بين مستويين من المعركة ونوعين من الوجود: الوجود الطبيعي (او الكون المادي) واسلوب بحثه منهج العلوم الطبيعية ، والوجود التاريخي (او الفكر / العقل) وأسلوب البحث فيه هو منهج البحث التاريخي و"لن تكون عمليات الطبيعة من قبيل العمليات التاريخية، ومعلوماتنا عن الطبيعة رغم تشابه ما بينها وبين التاريخ في بعض الاتجاهات السطحية كالترتيب الزمني مثلا ، فانها ليست معرفة تاريخية". (13)

يحاول كولنجوود تخلص التاريخ من مبادئ المدرسة الوضعية ليمنحه مفاهيم جديدة يتحدد من خلالها موضوعه ومنهجه ، وقيمه الفلسفية ، اذ لايمكن للتاريخ التجرد من تأثير الفلسفة عليه وما يمارسه هذا التأثير من فعالية في تقدم البحث التاريخي ، واثراء المعرفة التاريخية.

فالعلم وحسب التحديد الجديد له عند كولنجوود هو كشف عن حقيقة الاشياء ، ومنه الكشف عن حقيقة التاريخ.

2 - التاريخ كموضوع للمعرفة:

تنطلق المعرفة بوجه عام من تحديد موضوعها ، فما هو موضوع التاريخ عند كولنجوود ، وما هي الحقائق التي يمكن أن يكشف عنها ؟ وكيف يتصدى كولنجوود لهذا السؤال؟

انه يقول "سأجيب عن هذا بقولي "جهود الانسان " اعني بها الاعمال التي قام بها الانسان في الماضي...التاريخ هو العلم الخاص بالجهود الانسانية، أو محاولة تستهدف الاجابة عن الاسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي".(14)

يسمح لنا هذا النص بتأكيد التاريخ كموضوع للمعرفة اذ موضوع التاريخ هو جهود البشرية في الماضي. انه قائم على محاولة التوصل الى الماضي الذي عاشته الانسانية ، فالتاريخ يفترض موضوعا بما انه يتحدد كمعرفة، وهذه الاخيرة تفترض انها تستطيع ان تصل للماضي الذي عاشته الانسانية "حقا" ولكننا لانستطيع عن هذا الماضي ان نقول أي شيء الا التسليم بوجوده كضرورة. (15) هكذا عبر مارو (MARROU) أثناء حديثه عن موضوع التاريخ ذي الخصوصية ، فهو بلا شك ينتمي الى الاحداث الجزئية والفاعل في هذا التاريخ هم الناس ، الفرديات الانسانية (16)

يسعى المؤرخ اذن الى محاولة استنطاق الماضي ، باستنطاق جهود البشرية وما فعلته في هذا الماضي كما يقوم بفهم ما قام به الانسان كفرد فاعل خلف اثارا هي جهوده التي نسعى الى فك رموزها اليوم.

ان الموقف المبدئي الذي نستخلصه من تعريف كولنجوود لموضوع التاريخ، هو التسليم بأن التاريخ علم ، وبواسطة هذا العلم نصل الى حقائق

الماضي ، او نحاول الاقتراب من هذه الحقائق ، ولكن ماهي خصائص هذا
"العلم"؟

3 - خصائص "علمية" التاريخ.

لا ينكر كولنجوود على التاريخ علميته فالتاريخ "نوع من انواع البحث
العلمي" هذا القول يورده الفيلسوف في سياق حديثه عن التاريخ . ونتساءل عن
معنى العلم مع كولنجوود فيجيب : " ان العلم هو الكشف عن حقيقة الأشياء
وهذا هو المعنى الذي نقصده من قولنا أن التاريخ علم " . (17)

لم يقصد كولنجوود من العلم المفهوم الذي يتحدد به في العلوم الطبيعية
أو الاستعمال الذي قصده المدرسة الوضعية ، لقد كان كولنجوود يريد أن
يقول : "ان التاريخ علم من نوع خاص ، هو علم ينصرف الى دراسة الاحداث
التي لا سبيل الى مشاهدتها الآن ، دراسة تستند الى الاستدلال ، نستطرد فيه
إستنادا الى شيء آخر نستطيع مشاهدته ، ذلك الشيء الذي يسميه المؤرخ
"المادة التاريخية" لدراسة الأحداث التي يهتم بدراستها " . (18)

يعتمد التاريخ في سبيل تكريس علميته على التجارب الماضية ، وبما أن
التجارب الماضية هي تجارب غائبة عن المؤرخ ولا يستطيع تكرارها ، مثل ما
يكرر العالم الطبيعي تجربته في المخبر ، فإنه يلجأ الى البديل وهو الاعتماد على
"المادة التاريخية" التي تسمح باستعادة الخبرة الماضية ، بالاعتماد على التحليل ،

البرهنة ، والاستدلال ، وفي هذا الاطار يجب أن يفهم "العلم " ، عندما نتحدث عن علمية التاريخ عند كولنجوود .إن مادة المؤرخ هي الوثائق التاريخية التي لا غنى للبحث التاريخي عنها ، إذ هي الوسيلة في الحوار بين الماضي وبين الحاضر (المؤرخ).

ويؤكد كولنجوود أنه لا يجب أن نعيب على التاريخ كونه لا يستطيع الوصول إلى الحقائق المطلقة ، إذ أن هذا لا ينبغي أن يتخذ مبررا لنفي صفة العلمية عنه ، فحتى البحوث العلمية في مختلف المعارف لا تستطيع أن تحكم بقطعية نتائجها ، طالما أن العلم يفاجئنا كل يوم بالجديد ، لهذا نجد أن "البحوث التاريخية مثلها كمثل البحوث العلمية الهامة ، لا تنتهي بنا الى نتائج قاطعة لا معقب عليها". (19)

إن الوثائق التاريخية التي هي المادة الأولية في البحث ، لا تحمل تأويلا نهائيا، وكل مؤرخ لا يجب أن يقنع بالنتائج التي يتوصل اليها زملاؤه المؤرخون ، لان البحث التاريخي هو الاضافة الجديدة التي يمنحها المؤرخ لأي موقف تاريخي.

"الفكر" والنظرية التاريخية

إن "الفكر" ليس مصطلحا فلسفيا مجردا فحسب بل له مدلول تاريخي وواقعي ايضا. ان الفكر حركي ومستمر لان التاريخ في تطور دائم ، بل انه

الفكر، لان "كل تاريخ هو تاريخ فكر" يرى ألبرت شالوم بأن المسألة عند كولنجوود متعلقة "بمصطلحات جد خاصة". UN VOCABULAIRE TRES PAR TICULIER هذه المصطلحات تترجم وجهة نظر فلسفية ، والامر هنا يتعلق بمصطلح الفكر واسعمالاته ومدلولاته (20) ويواصل قائلا بشأن مصطلحات كولنجوود ، بان هذه المصطلحات الخاصة عنده لا تدل فقط على مفاهيم أساسية لعمل المؤرخ ، بل تدل أيضا على مخطط تصوري فلسفي مرتبط عنده بنشاط المؤرخ .(21)

لا يبدو إذن أن هذا المصطلح بسيط ، بل نجده مرتبطا بتوظيف خاص يفضى الى مدلول خاص أيضا ، اذ لا نعثر في تاريخ الفلسفة على استعمال لمصطلح الفكر بنفس الشكل الذي استعمله كولنجوود وهذا في فلسفته بوجه عام ، وفي فلسفته التاريخية بوجه خاص ، إذ يعتبر الفكر في هذا الاخيرة القاعدة الاساسية لفهم النظرية التاريخية.

1 - "كل تاريخ هو تاريخ فكر" عند كولنجوود

إذا كانت الطبيعة مجرد إيقاع متتابع من الحوادث فإن التاريخ لا يصدق عليه هذا الوصف ، لأن العملية التاريخية هي أعقد من ذلك ، إن لها "زواياها الداخلية" هي "العمليات الفكرية" لذلك فإن "كل تاريخ هو تاريخ فكر".

إن العقول البشرية هي التي تفعل في العملية التاريخية ، وهي بذلك عناصر تجدد دوما مفهوم التاريخ الذي هو جهود البشرية في الماضي ، ثم أن دراسة التاريخ هي دراسة فكر الماضي لأن ما يتبقى لنا من الماضي هو الافكار التي يتولى التاريخ دراستها.

بهذه الكيفية يعبر كولنجوود عن حقيقة العملية التاريخية التي هي عملية فكرية فعلى الرغم من أن إعادة بناء الحدث التاريخي هو مسألة معقدة فان الفكر يطلب منه القيام بهذه المهمة.

وفي هذا السياق لا يجب أن نفهم من عبارة كولنجوود أن العملية التاريخية هي عملية تفكير بمعنى وجود قوالب جاهزة ، أو ان العملية هذه مشروطة قبلها ، إنها ليست هي العقل بل إن العقل هو اطار لها ، إنها حياة هذا العقل الذي يشتغل بها ، والعملية التاريخية لا تمارس إلا بالعقل وحده يقول كولنجوود "التاريخ لا يفترض وجود العقل ككيان سابق له ، وإنما هو حياة العقل ذاتها ، حياة ليست هي العقل ، الا إلى الحد الذي تعيش فيه في نسيج هذه العملية التاريخية وتذكر أنها تعيش فيها." (22)

إذا كان موضوع المعرفة التاريخية كما أسلفنا هو "الفكر" أو بالأحرى العملية الفكرية في حد ذاتها . فكيف يتم استرجاع هذا الماضي ، وماهو المنهج الذي يمكننا من ذلك ؟ كيف يحل كولنجوود هذا الإشكال؟

2 - كيف يستحضر الماضي ؟

عند ما يتعامل المؤرخ مع الماضي فإن الموضوع الذي ينبغي توضيحه ليس هو الحادثة ولكن " الفكرة " التي تعتبر الحادثة التاريخية تجسيدا لها ، وتمكن المؤرخ من الفكرة معناه أنه استطاع أن يعي ويفهم هذه الفكرة. إن المعرفة التاريخية ليست مجرد رواية ، وإنما تهدف الى ايجاد معقولة في الماضي ، هذا مانتييه من خلال القول الكولنجودي في هذه المسألة.

ماهي الوسيلة التي تمكن المؤرخ من نقل الماضي الى الحاضر في صورة فكرة تحاول تصوير ماحدث في الماضي ؟ كيف "يفهم" التاريخ إذا استعملنا مصطلح الفيلسوف الالماني دلتاي ؟ يقول كولنجوود بصدد هذه النقطة : "لقد كان من نتيجة الدراسة التحليلية التي قمت بها لفكرة التاريخ ، أن تمخض عن إجابة عن هذا السؤال: وهي أن المؤرخ ينبغي أن يتمثل أحداث الماضي في عقله ". (23) إن المؤرخ وبناء على ماورد ذكره في هذا النص يسترجع الماضي بواسطة تمثل هذا الماضي ، وكولنجوود هنا يستعمل مصطلح التمثل ، وقبله كان دلتاي قد استخدم مصطلح الفهم ، وكلا الاصطلاحين قائم على عملية تأويل لديها شروطها وخصائصها لمحاولة فهم الخطاب التاريخي. وقبل الدخول في تفصيل مصطلح التمثل، خصائصه؟ وحدوده ؟ تستدعي الضرورة المنهجية منا التعرض

أولا لدلتاي باعتباره المنظر لهذا المصطلح الذي تأثرت به النظريات التاريخية فيما بعد، ولكن مع دلتاي كان هذا المصطلح يطلق عليه "الفهم".

3 - الخلفية التاريخية للفهم

أ - دلتاي ونقد العقل التاريخي

يرجع التنظير الفلسفي للفهم واستخدامه في الدراسات الانسانية إلى دلتاي ، وتوضيح هذا يستدعي منا عرض النظرية التاريخية عند هذا الفيلسوف ، لانه لا يمكننا تناول مصطلح "الفهم" معزولا عن سياقه المعرفي. تبدأ فلسفة التاريخ المعاصرة بدلتاي لكونه رائد منهجية الدراسات الانسانية المعاصرة. لقد قام بنقد العقل التاريخي على غرار ما قام به كانط في نقد العقل الخالص.

حاول دلتاي بعد قراءته لكانط نقد المقولات الكانطية وإعطاء قائمة جديدة من المقولات أطلق عليها مقولات الحياة. ان مقولات كانط في نظر دلتاي صالحة للعلوم الطبيعية ولكنها غير صالحة للعلوم الروحية ولذلك فبحده يقترح مقولات جديدة بديلة تتناسب "والعقل التاريخي" وسنعرض فيما يلي جدولين يوضحان المقولات عند كانط ، ثم المقولات عند دلتاي ، ويتبين بعدها الفرق في هذه المقولات وتطبيقاتها.

المقولات عند كانط (KANT)	تطبيقاتها	مصدرها	خصائصها	المنهج
في الكم في الكيف في الاضافة في الجهة الوحدة الواقع الجوهر والعرض الامكان الكثرة السلب العلة والمعلول الوجود الشمول التحديد التبادل الضرورة	العلم الطبيعي	العقل الخالص	محدودة عدديا ومشروطة قبليا	التفسير

جدول بياني يوضح المقولات عند كانط

المقولات عند دلتاي (DILTHEY)	تطبيقاتها	مصدرها	خصائصها	المنهج
مقولة الحياة مقولة العبارة مقولة التجربة مقولة القيمة مقولة المعنى مقولة الغاية مقولة النمو.....	العلوم الروحية (التاريخ)	العقل التاريخي	ليست محدودة عدديا و هي كامنة في الحياة	الفهم

جدول بياني يوضح المقولات عند دلتاي

ان مجال تطبيق المقولات الكانطية هو العلم الطبيعي ، ولكن هذه المقولات لا يمكن تطبيقها على الدراسات الانسانية لطبيعة هذه الاخيرة التي لا تفسر كما تفسر العلوم الطبيعية والفيزيائية فهي تفهم ، ذلك أن العلوم الانسانية ومنها التاريخ تدرك من الداخل ، أي تفهم.

وفي عرضه للمقولات إهتم دلتاي أكثر ما اهتم بمقولة "المعنى" ويقول في هذه المقولة " المعنى هو العلاقة الخاصة التي ترتبط فيها الأجزاء بالكل في حياة ". (24) ويضيف قائلا:

"أبسط حالة يحصل فيها المعنى هو فهم الجملة ، هنا كل كلمة يكون لها معنى ، وجمع الكلمات نصل الى معنى الجملة. هنا فهم الجملة ينتج عن معنى مفرداتها. غير أن هناك تفاعلا بين الكل والأجزاء التي من خلالها يتحدد معنى المفردات ويزول إلتباس المعنى. نفس العلاقة نجدها بين الاجزاء والكل في مجال الحياة ، فهنا أيضا فهم الكل ، أي مغزى [معنى] الحياة ، يأتي من معنى الأجزاء ". (25)

– الحياة تفهم بمقولاتها

أطلق دلتاي على مقولاته البديلة للمقولات الكانطية اسم مقولات الحياة، والحياة عند دلتاي مفهومها واسع جدا ، إنها الانتاج الانساني في جميع الميادين ، وهي بذلك تشمل السياسة ، القانون ، التاريخ ، العلم ، التشريعات ،

الاقتصاد ، وكل ماهو من انتاج الانسان وابداعه ، وبهذا فكل التجارب الانسانية هي موضوع للفلسفة وبحوثها . وفي هذا الشأن يقول دلتاي:

"ان مجال الدراسات الانسانية يتحدد بتموضع الحياة في العالم الخارجي . يستطيع العقل ان يفهم ما أنتجه فقط ، أما الطبيعة التي هي موضوع لدراسة العلوم الفيزيائية فتشمل واقعا وجد مستقلا عن فلسفة العقل . كل شيء يحمل آثار العمل الانساني يشكل موضوعا للدراسات الانسانية " . (26)

فالدراسات الانسانية وبالمعنى الذي منح لها من طرف دلتاي هي جزء لا يتجزأ من الحياة والتي يتجدد فيها الانسان باستمرار بابتكاراته وانجازاته . إن "الحياة" لا تستطيع أن تفهم معزولة عن مقولاتها التي تفهم بها ، فهناك علاقة تلازم بين الحياة ومقولاتها عند دلتاي ، ونص الفيلسوف يفصح عن ذلك .

الحياة تفهم في طبيعتها الخاصة بواسطة مقولات لا علاقة لها بمعرفة الطبيعة . والنقطة الفاصلة هنا هو أن هذه المقولات لا يتم تطبيقها على الحياة قبلها كأنها بذلك شيء غريب عنها ، ذلك أن المقولات تكمن في طبيعة الحياة نفسها " . (27)

يعلق ما كريل (MAKKREEL) على هذا المقطع معتمدا على نصوص أخرى لدلتاي قائلا : " نظرا لحركية الحياة التاريخية فإن هذه المقولات لا يمكن تحديدها [عدديا] كما هو الحال في نقد العقل الخالص لكانط . إن عددها يجب

أن يبقى غير محدد ، ومن ثم فلا يمكن لأي منها أن يلحق بالأخرى " . (28) إن طبيعة الحياة التاريخية وطبيعة الدراسات الإنسانية تجعل من المستحيل تحديد مقولاتها نظرا لسعة مجالها ونسبته أيضا .

ب - البعد الأساسي للإنسان عند دلتاي

يعتبر التاريخ البعد الأساسي للإنسان عند دلتاي ، والتاريخ عنده لا يعتمد على منهج التفسير أبدا ، إنه يدرك من الداخل وهو بهذا يعتمد على منهج الفهم ، فالتجارب البشرية في كل ميادين المعرفة لا يمكن أن توصف بل تفهم في باطنها وفي حركيتها ، إن لهذه التجارب أعماقا هي من صميم الفعل الإنساني وهي التي تشرح الفعل التاريخي أيضا ، وتتوقف حقيقة أي فعل يصبح تاريخيا على مدى إدراكنا وامتلاكنا للفعل من الداخل ، وقترابنا بالقدر المستطاع من نبضه وعمقه : " إذ يبين لنا التاريخ من خلال الدراسات الإنسانية أن الإنسان يقترب شيئا فشيئا من هدفه البعيد : معرفة الذات " . (29)

نلتفت قليلا هنا الى نقطة هامة لا يمكن إغفالها في الفلسفة الألمانية وهي وجود البعد التاريخي للإنسان وبشكل عميق ، فقد إعتنى بهذه المسألة من طرف جل الفلاسفة الألمان للتاريخ ، ومن بين هؤلاء نجد ي.درويسن (YOHANN DROYSEN) (1808 - 1884) الذي يرى أن "التاريخ هو المسار الذي تصير فيه الإنسانية واعية بذاتها ، وما العصور التاريخية ... إلا مراحل لمعرفتها

بذاتها ، ومعرفتها بالعالم وبالله... التاريخ وهو وعي البشرية بذاتها ، انه وعيها الذاتي ". (30)

ففي الفلسفة الألمانية للتاريخ وجدت على الدوام تلك الفكرة عن التاريخ القائلة بأنه مسار طويل يكتشف تدريجيا ، وبلغة هيجل ، فإن العقل في التاريخ لا يتجسد دفعة واحدة ولكنه عبر العصور يتموضع عبر مؤسسات إجتماعية مختلفة ، الشيء الذي يغيب في الفلسفة الإنجليزية التي أهملت تاريخه الانسان أو ما يسمى إصطلاحا (L'HISTORICITE) ، وحتى لو وجدت بعض النماذج القليلة في الفلسفة الانجليزية ، فهي تظل محاولات قليلة تطبع هذه الفلسفة ، التي أولت أكثر اهتمامها للبحوث العلمية والتجريبية في هذا المجال .

وتبقى معرفة الذات الإنسانية هدفا من أهداف الدراسات الإنسانية بشكل عام والتاريخ بشكل خاص ، فالبحث التاريخي يحاول معرفيا إستحضار تجارب الذوات الإنسانية، وهذه العملية المعرفية المتميزة تستدعي عند دلتاي منهجا خاصا لأن "منهجية الدراسات الإنسانية تختلف ... عن منهجية العلوم الفيزيائية". (31)

مما سبق يتبين أن "العقل التاريخي" يختلف عن "العقل الخالص" في المفاهيم المستعملة بينهما، ذلك أن مبحث التاريخ لايمكنه أن يوظف مفاهيم العلم، و لذلك يستبدل دلتاي بمفهوم السببية مثلا مفهوم الغاية، و بمفهوم

التفسير مفهوم الفهم ... بمعنى أن "كل المفاهيم [CONCEPTS] توظفها هذه المباحث [العلوم الإنسانية] تختلف عن تلك التي يوظفها العلم [الطبيعي]". (32) ويؤدي الاختلاف في استخدام المصطلحات و مدلولاتها إلى الاختلاف في المنهج أيضا.

ج - المنهج في الدراسات الإنسانية [في التاريخ]

يستخدم دلتاي منهج "الفهم" فما معنى الفهم عنده؟ و ماهو بحاله؟ يجب التنبيه في البدء إلى أن منهج الفهم في الدراسات الإنسانية و في التاريخ بشكل خاص بدأ مع دلتاي كتنظير و كبحوث مستقلة قائمة بذاتها، و لكن نجد أن أول من نبه إلى إستقلالية المنهج بين العلوم الفيزيائية و بين العلوم الإنسانية هو الألماني درويسن.

و تدل محاولة درويسن الرائدة إلى أهمية و ضرورة الفصل بين علمين مختلفين في الوقت الذي سعت مدارس كثيرة و منها الوضعية مثلا إلى توحيد منهجيهما، وجعل العلوم الإنسانية، أو كما يطلق عليها في كثير من الأحيان الدراسات الإنسانية، تنهج نفس نهج العلوم الطبيعية و الفيزيائية.

لقد تنبه درويسن في وقت مبكر إلى عدم جدوى هذه الطريقة و سجلها في مؤلفاته و ألح على ضرورة إستقلالية منهج الدراساتين، فللعلوم الطبيعية منهجها الخاص بها و هو منهج التفسير ، و للدراسات الإنسانية منهجها الخاص

بها وهو منهج الفهم. فدرويسن هو الذي استخدم مصطلح "الفهم" لأول مرة في الإستعمال الفلسفي، يقول درويسن في إحدى نصوصه : "حسب موضوع و طبيعة الفكر الإنسان فإن هناك ثلاثة مناهج عملية ممكنة : المنهج التأملي (ونجده في الفلسفة واللاهوت) و الرياضي أو الفيزيائي ثم التاريخي. و طبيعة هذه المناهج أننا نعرف، نفسر و نفهم". (33) و يعلق كارل أتوآبل

(KARL OTTO APEL) قائلا : أنها المرة الأولى التي يحدث فيها التمييز بين التفسير و الفهم. (34)

وكانت النتيجة هي دحض كل دعوى تحاول رد الظواهر الإنسانية الى ظواهر طبيعية أو فيزيائية وكذلك رفض أي منهج يدعى لنفسه إمكانية الجمع بين العلمين الطبيعي والإنساني في منهج واحد ، ويتضح موقف درويسن أكثر وبشكل حاسم عندما يقول "لقد حاولت في مكان آخر أن أدحض الدعوى التي يحملها البعض ضد علمنا [التاريخ]. هؤلاء يرون أن منهج العلوم الطبيعية هو المنهج العلمي الوحيد ، وأن التاريخ يجب أن يصل الى رتبة العلم بتطبيق ذلك المنهج". (35)

مع دروسين بدأت فكرة "الفهم" غير أن دلتاي يرجع إليه الفضل في التنظير لهذه المسألة وتخصيص مباحث مستقلة لها ، لقد افاض بأبحاثه في الحديث

عن منهج الفهم فيما سماه بالعلوم الروحية لذلك يرجع إليه الباحثون كمنظر
اساسي للفهم.

نرجع الآن إلى السؤال الذي طرحناه في البداية عن معنى الفهم ومجاليه
عند دلتاي.

- معنى الفهم

يقول دلتاي في الفهم "نسمى العمل [process] الذي نتعرف به على
محتوى داخلي [INNER CONTENT] من إشارات تتلقاها الحواس الفهم". (36)
ويضيف قائلا في الفهم "الفهم هو العمل [PROCESS] الذي به نتعرف على
حالة شعورية إنطلاقا من الرموز التي تتلقاها الحواس والتي بها تعبر الحالة
الشعورية عن نفسها". (37)

إن الفهم عند دلتاي منهج للدراسات الانسانية والتاريخية التي تتميز
بالتجارب الداخلية ، فالتجربة التاريخية لا يمكن أن تفسر على شاكلة العلوم
الطبيعية ، بل تفهم في انسجامها الداخلي.

- مجال الفهم.

كل حركة إنسانية ، كل إبداع إنساني ، كل معرفة إنسانية ، وكل ما
أنتجه الانسان فكريا قابل للفهم وقابل لأن يكون موضوعا لأي دراسة إنسانية،
والفهم عند دلتاي "يمتد من فهم ثرثرة الأطفال إلى فهم هاملت ، أو نقد العقل

الخالص ، إنها نفس الروح الإنسانية التي تتحدث إلينا من خلال الحجر، الرخام، القطع الموسيقية ، الايماءات ، الكلمات والكتابات من خلال الأفعال ، الترتيبات الاقتصادية والدساتير ، كل هذا يجب تأويله ، عملية الفهم هذه يجب أن تكون لها دائما نفس الخصائص " . (38) وبهذا فكل الافعال الانسانية قابلة لعملية الفهم.

- الفعل الانساني يفهم في كليته [الكل - الوحدة]

يتحدث دلتاي عن عملية الفهم ويرى أن "هذه العملية يجب أن تكون لها دائما نفس الخصائص" نتساءل مع دلتاي لماذا نفس الخصائص ، ثم ما هي هذه الخصائص التي يتحدث عنها دلتاي ليتسنى لنا أن نتحدث عن الفعل في وحدته وفي كليته؟

إن فهم إبداعات الانسان مقيدة بشروط لاننا لا نستطيع فهم المبدع ليونارد ودافينشي إلا من لوحاته وسلوكاته وكتابه بطريقة ينسجم فيها هذا الكل ولا يكون متناقضا ، وتناول أعمال ليوناردو دافينشي من الداخل ، في عمقها يعطي صورة حقيقية عن صاحبها ، إذن إن كل عمل وجهد معرفي يقرب فهمنا من صاحبه ، يقول دلتاي في عملية الفهم بأنها " محددة بشروط مشتركة وأدوات خاصة وهي تبقى نفسها في صفتها الأساسية ، فمثلا لو اردت

فهم ليوناردو [ليوناردو دافينشي (1452 - 1519)] لوجب علي أن أول افعاله لوحاته وكتابه بطريقة واحدة متجانسة ". (39)

فهم أي عمل إبداعي يتوقف على تأويله والربط بين أجزائه في وحدة ، بحيث يشكل لنا ليوناردو دافينشي - وهو المثال المذكور آنفا - ولوحاته وكتابه وفعاله كلا واحدا.

استنتاجات

لأننا لتوظيف دلتي للاعتبارات الآتية.

أ - وجود بعض القرابة في الاصطلاح يعتمد اساسا على تكرس مصطلحات تعارض النزعة الوضعية إذ أن بين كولنجوود ودلتي بعض العناصر المشتركة . توظف النظرية التاريخية عند كليهما المصطلحات العلمية ولكن ليس في المعنى الوضعي ، بل في معنى لا يجعل من التاريخ يفقد طابع البحث التاريخي العلمي ، كما لا يجعله ايضا يقتفي آثار العلوم الطبيعية . فتوحيد المنهجين بين علمين مختلفين [العلم الطبيعي والتاريخ] غير وارد إطلاقا بين الفيلسوفين.

ونذكر أننا في هذه العجالة لم نقصد الى إجراء مقارنة بين الرجلين ، فهذا ليس هو غرضنا إنما هناك بعض النقاط المشتركة بين الفيلسوفين هذه النقاط التي تحتاج الى بحث لا يرجع وجودها الى محض الصدفة ، ولا يمكن المرور عليها دون التوقف على معناها وتأثيراتها المعرفية ، وهو ما قصدنا إليه في هذا

المقام . فنحن نعثر على بعض عناصر النظرية التاريخية عند كولنجود تمتد أصولها ومفاهيمها الى دلتاي ، ويبدو هذا التأثير المعرفي طبيعيا خاصة وأن كولنجود قرأ دلتاي.

ب - إن دلتاي هو رائد فلسفة التاريخ المعاصرة في ألمانيا (وفلسفة التاريخ المعاصرة اساسا هي إنتاج الماني من حيث الكثرة والجودة والاصالة) رغم أن هذا الانتاج إنتقل الى مناطق جغرافية أخرى من العالم فيما بعد.

ونعتقد أن الفلسفات المعاصرة للتاريخ لا يمكنها أن تتجاهل إنتاج دلتاي بأي شكل من الأشكال بسبب ما أحدثه من ثورة في عالم "الروح" [العلوم الانسانية] انتجت مصطلحات ومفاهيم جديدة ومنهجاً جديداً أطلق عليه منهج "الفهم" ، كل هذا يتم توظيفه فيما بعد في الفلسفات اللاحقة ، أو يتم نقده ، وفي جميع الأحوال فدلتاي حاضر في الفلسفات المعاصرة ومنها الفلسفات التاريخية.

لقد مارست نظرية دلتاي في العلوم الانسانية (علوم الروح) تأثيراً كبيراً على الفلسفة في المائة سنة الأخيرة بمصطلحاتها ومنهجها.

ج - محاولة دلتاي - في رأينا - مصدر معرفي هام يجب الرجوع إليه عند التعرض إلى تاريخية بعض المفاهيم ، إذ لا يمكن أن نعزل بعض المفاهيم عن سياقاتها التاريخية ، وعن كيفية تأثيرها في الفكر الفلسفي.

ما معنى التمثل ؟

نسترجع الماضي عند كولنجوود عن طريق التمثل ، فما الذي يقصده كولنجوود بالتمثل ؟ هل التمثل وسيلة فعالة لمعرفة أو فهم الماضي ؟ التمثل هو إعادة تصوير الماضي ؟ فهل يتمكن المؤرخ من إعادة تصوير الماضي حقيقة ؟ أم أن التنظير شيء والتطبيق شيء آخر ولا يمكن للتطبيق أن يرقى الى مستوى النظرية ؟

لقد انتبه كولنجوود الى هذه المسألة جيدا والى ما يمكن أن يترتب عنها من جدالات وانتقادات إفتراض وجودها ، ليخلص في الأخير الى موقفه من كل هذه الجدالات كما سيتبين لاحقا.

والتمثل عند هذا الفيلسوف هو محاولة استحضار مضمونات عملية تاريخية لكي نفهمها ، فالماضي وهو إشكالية معرفية بالنسبة للمؤرخ لا يمكن أن يسترجع إلا بالتمثل ، وعندما نقوم بعملية التمثل فنحن نتمثل فكرة هؤلاء الذين عاشوا في الماضي.

يرفض كولنجوود بشدة أن يكون التمثل ذا طابع سيكولوجي ، ولقد حذر من خطر الوقوع في هذا المازق عند ما تعرض الى مقاله حول دلثاي ونص النظرية التاريخية عنده.

إن استرجاع الخبرات الماضية ليس استرجاعا سيكولوجيا لها ، وهذا يعني أن استرجاع الحادثة إنما يتم بالفكر وليس بالشعور ، إلى هذا الحد تعتبر عملية التمثل عملية ممكنة رغم الالتباسات التي تعترض سبيل هذه الفكرة وقد انتبه إليها الفيلسوف ، وافترض وجودها ، بل وناقشها باسهاب.

يستبعد كولنجوود الطابع السيكولوجي للتمثل حين يقول : " حين أتمثل بوصفي مؤرخا ، موقفا من مواقف يوليوس قيصر ، فلن تقتصر المسألة هنا على أنني تقمصت شخصية يوليوس قيصر ، الواقع عكس ذلك ، هو أنني لا زلت احتفظ بذاتي ، وأعرف في نفس الوقت أن هذه هي الذات التي تمثلي لا أحد سواي ". (40)

وعند ما يتحدث كولنجوود عن الطريقة التي بواسطتها يستطيع المؤرخ أن يتمثل مواقف يوليوس قيصر ، وهي شخصية تاريخية عاشت في الماضي ، فإن هذه العملية لا تعني "الخلط بين ذاتي وذاته، ولكن الطريق هو التمييز بين ذاتي وذاته ، بالاضافة الى أنني في نفس الوقت أتمثل تجاربه كأنها تجاربي ". (41)

إن الخطأ الذي ينبه إليه كولنجوود هو الخلط بين الفكر والشعور (الاحساس) ووظيفة كل واحد منهما خلال عملية المعرفة ، فقولنا بالطابع السيكولوجي للتمثل سيحيلنا حتما إلى أن المعرفة التاريخية هي آنية ليس إلا ،

لأنها مرتبطة بالشعور ، وهذا الأخير لا يمكن أن يشكل معرفة ابدا . فالفكر هو القادر على معرفة الماضي وحده دون مشاركة أخرى .

المعرفة التاريخية لا تقوم على الوعي المباشر في النسق الكولنجوودي لأنها أعمق وأعقد من أن تكون مجرد شعور إنطباعي ، ثم أن القول بهذه الفكرة الأخيرة يجعل المعرفة تتغير في كل لحظة بتغير الحالة الشعورية ، وهذا الإحتمال لا يمكن أن يرسخ المعرفة أو يجعلها قائمة بذاتها .

موضوع التمثل - وبناء على ماورد - هو الفكر ، وعملية التمثل عملية ممكنة لأن العملية الفكرية يمكن تكرارها . والذين يقولون باستحالة التمثل [إعادة تصوير الماضي] هم الذين لا يفرقون بين الشعور والفكر . "فالقول إذن بان عملية فكرية لا يمكن أن تحدث مرتين ، لأن تدفق الوعي يطيح بها ، قول خاطيء ، مرده في الاصل إلى خطأ في تكييف النقطة التي نريد البرهنة عليها... العملية الفكرية ليست مجرد أحاسيس ومشاعر بل هي معرفة ، والمعرفة شيء أكثر من الوعي المباشر" . (42)

1 - التمثل هو استحضار فكر الماضي

إن التمثل في العملية التاريخية عند كولنجوود هو نقل الخطاب الماضي الى الحاضر بواسطة الفكر ، فلكي يكتشف المؤرخ فكرة من الماضي عليه أن يعيد تصويرها لنفسه من جديد ، وقراءة وفهم الخطاب التاريخي الماضي يتطلب

غوصا في ثقافة الماضي وإدراكه بوعي يكون فيه المؤرخ أداة من أدوات الأحداث فما معنى العبارة الأخيرة؟

إذا كان أمام المؤرخ مثلا مرسوم إمبراطوري (قانون تيودوسيوس) فتفسير ما ورد في هذا القانون غير كاف على حد تعبير كولنجوود لإدراك الأهمية التاريخية له ، وإنما يتعين على المؤرخ مواجهة الموقف الذي كان قد واجهه الإمبراطور وعلى النحو الذي "فعله الإمبراطور" أن يتمثل الموقف كما حصل في الماضي مع صاحبه ، أن يتصور نفسه هو الامبراطور وما الذي كان يفكر فيه الامبراطور ، وهذه العملية العقلية المعقدة متى استطاع المؤرخ أن يوفق فيها نقول عندئذ أنه قادر على التمثيل ، فالمؤرخ "يتحتم عليه ان يمر في كل أدوار التفكير التي مر فيها الامبراطور وقتئذ ، حين قرر أن يأخذ بهذا الحل الذي لجأ إليه ، فهو بهذا يتمثل بعقليته تصرفات الإمبراطور ، بل أن معرفته التاريخية بمعنى المرسوم ، بصرف النظر عن مجرد المعرفة اللغوية ، لتعتمد الى حد كبير على قدرته على تمثيل الصورة ". (43)

والتمثل هنا هو تمثيل واع لان هدف المؤرخ هو المعرفة وليس تقمص شخصية الامبراطور ، فالمرور في كل ادوار التفكير التي " مر فيها الامبراطور " معناه المرور في جميع المواقف التي تعرض اليها وهذا بواسطة الفكر ، وتمثل جميع

تلك المواقف هو إدراك الحقيقة هذا المرسوم الامبراطوري ، ليس إدراكا لغويا فحسب بل وإدراكا فكريا معرفيا.

ولنتقل الى مثال اخر يورده كولنجود يشرح فيه عملية التمثل وكيف تتم ، يقول : "أجد أنني حين أتمثل شخصية "بيكيت" أكون على بينة من أنني "بيكيت" أي أعرف أنا شخصا الان أنني أتمثل تفكير "بيكيت" وإذن فأنا "بيكيت" في هذا المعنى ". (44) هو إذن تمثل واع لشخصية "بيكيت" من أجل فهم فكره ، فالمؤرخ لا يستطيع فهم "فكر بيكيت" إلا إذا استطاع أن يدخل في دهايز هذا الفكر ، ويدرك معانيه ، ثقافته ، واليات تفكيره ، هذا لكي يستطيع أن يفكر مثل ما فكر فيه "بيكيت" وأن يتمثل جميع أنواع النشاط الفكري الممكنة "لبيكيت".

وهذه المهمة لا يأتيها المؤرخ إلا بثقافة واسعة وقراءات كثيرة ، هي على قدر أهميتها وصعوبتها لا يمكن أن يأتيها المؤرخ بالارتجال.

أن تتمثل تفكير "بيكيت" ليس معناه أن تستحيل الى "بيكيت" أو لنقل ان هذه الاستحالة عليها أن تكون مؤقتة وممكنة في هذه الحدود ، و أن يصبح المؤرخ "بيكيت" يعني أن يعيش مع هذا الفكر فترة البحث أو الدراسة ويتم بين المؤرخ وتفكير "بيكيت" حوار متواصل وسهل ، ولكن في كل هذا يدرك المؤرخ

بأنه ليس "بيكيت" الحقيقي ، ومطلوب منه أن يصبح "بيكيت" بعملية تمثل كي يستطيع فهم فكره.

فهناك إذن مرحلة وعي تفصل بين وظيفة المؤرخ "التمثل" وبين النصوص المطلوب تمثيلها.

لا يمكن لنصوص الكاتب أن تعبر تعبيرا صادقا عما تتضمنه من أفكار الا في حالة تمثيلها من طرف دارس هذه النصوص ليتم التفاعل مع هذا الفكر في جوهره ، وكما أراد له صاحبه أن يكون للتوصل الى غرض الخطاب التاريخي . وعملية التمثل ضرورية جدا للاستعداد لعملية النقد فيما بعد ، إذ لا يمكن توجيه النقد لفكر لم نستطع إدراك معانيه بعد ، فعملية النقد الجيدة تكون مسبقة بعملية تمثل جيدة.

وفي معرض حديثه عن فلسفة أفلاطون وكيف يتم تمثيلها يقول كولنجوود في هذا الصدد "المطلوب في هذه الحالة إذا كان لا بد لي من معرفة فلسفة "افلاطون" هو أولا : أن أتمثل هذه الفلسفة في عقليتي . وثانيا : أن افكر في اشياء أخرى أستطيع على ضوئها أن أحكم على هذه الفلسفة " . (45)

لا يقصد كولنجوود بالتمثل ، استرجاع آلي وعشوائي لاحداث الماضي بحيث "لا تكون هذه مجرد عملية سلبية يستسلم فيها المؤرخ لسحر عقلية أخرى، وإنما هي جهد ايجابي ، ومن أجل ذلك تنطوي على تفكير نقدي

تحليلي. إن المؤرخ لا يتمثل التفكير الماضي فحسب ، وإنما هو يتمثله في سياق معرفته الخاصة ، وهو لذلك ينقده في نفس الوقت " . (46) فإذا أخذنا من جديد المثال الذي أورده كولنجوود في مسألة تمثل فلسفة افلاطون فإننا نقول بأن المراحل التي يقطعها المؤرخ وهو يتناول فلسفة افلاطون هي :

أ - تمثل فكر افلاطون في فكر من يدرسه

ب - العملية الثانية هي عملية النقد لفلسفة افلاطون الناتجة عن استيعاب جيد للنص الأفلاطوني.

ج - عملية النقد تصبح بمثابة فلسفة جديدة لدراس فلسفة أفلاطون. وهكذا يجب أن يكون التعامل مع النصوص مهما كانت طبيعتها ، أدبية فلسفية ، أو تاريخية ، وهذا ما نستنتجه ونحن نتعامل مع النص الكولنجوودي. إن الدراسة النقدية للتاريخ هي تلك القائمة على التفكير ثم التقرير ، فالمؤرخ عليه "أن يثبت مما فكر فيه فلان" ثم يترك لإنسان آخر أن يقرر "مبلغ هذا التفكير من الصدق " . (47)

- موقف كولنجوود من التفسير السيكلوجي

لا نجد للإجابة عن هذا السؤال أفضل من التعرض لموقف كولنجوود من النظرية التاريخية عند دلتاي ، إذ أن عرض موقف كولنجوود لنظرية هذا الأخير

وكيفية فهمه لها سيوضح لنا موقف كولنجوود من التفسير السيكلولوجي للتاريخ.

إنتهى كولنجوود الى أن دلتاى وقع في أخطاء معرفية من بينها جعله للحياة التاريخية تجربة حسية وعدم اعتبارها فكرا ومعرفة . وإذ نحن نتعرض لهذا الموقف فهو لشرح وجهة النظر هاته التي وردت في موقف كولنجوود من فلسفة التاريخ عند دلتاى ، وليس من قبيل الموافقة ، وعليه فإننا سنتوقف عند بعض النقاط كما صاغها كولنجوود وكما فهمها ، ثم نعود لتوضيح بعض الأخطاء في قراءة كولنجوود ، وفي خصم هذه المناقشة سنبرز موقف دلتاى ، فاسحين المجال لنصوصه الصريحة حول هذه النقطة.

وننبه الى أن ايراد هذه المواقف كلها هو من أجل الإجابة عن السؤال الذي طرحناه في هذا السياق ، لذلك فإن إختيارنا لنقاط محددة في هذه المسألة كان اختيارا وظيفيا.

أ - رأى كولنجوود في النظرية التاريخية عند دلتاى.

إعتقد كولنجوود أن دلتاى لجأ في كثير من الأحيان عند حل بعض المشاكل في النظرية التاريخية الى علم النفس ، وراح يقول بهذا الشأن "ولكن ثمة مشكلة قائمة لم تحل بعد... تفصيل ذلك أن الحياة في نظر دلتاى تنصرف الى

المعرفة التي تصل إلينا بطريق مباشر (كما تعرف الموجودات الحسية مثلاً) ، فهي إذن معرفة لن تأتي عن طريق التفكير أو أسلوب المعرفة العلمية". (48)

يرى كولنجوود أنه من الضروري استبعاد إدراج التجربة التاريخية ضمن المعرفة الحسية المباشرة إذا "القول بأن التاريخ يمكن فهمه ، استناداً إلى أسس سيكولوجية ، معناه استحالة المعرفة التاريخية". (49) وهذا ما خلص إليه دلتاي في نظر كولنجوود اعتباراً من أن المعرفة التاريخية تستند على أسس سيكولوجية.

إن الماضي بالنسبة لكولنجوود لا يمكن بأي حال من الأحوال إدراكه حسياً ، والخطأ الذي وقع فيه دلتاي - في نظر كولنجوود - أنه "اعتقد أن هذا الماضي التاريخي يعيش في الحاضر الذي يستطيع أن يكون على بينة من هذا الماضي ، استناداً إلى إدراكه الحسي المباشر لهذا الماضي ، ولكن هذا الإدراك المباشر ليس من قبيل التفكير التاريخي إطلاقاً". (50)

يوضح الموقف الكولنجوودي أنه لا يمكن لنا أن نطلق إسم معرفة علمية تاريخية على تلك التي تتبنى أسساً سيكولوجية في بحثها . وهذا الموقف مهما • كافت مصادر قراءته و مانتج عنه في مجال المعرفة يحتاج إلى تقديم ونقد.

ب - تقييم قراءة كولنجوود لدلتاي

قد يكون التفسير الوارد عند كولنجوود راجعا الى خطأ مرده فهم الحياة في المعنى السيكلولوجي للكلمة. والحياة كما قصدها دلتاي لم تكن تعني عنده الوظائف السيكلولوجية التي يقوم بها الانسان ، وإنما كان مفهوم الحياة خلافا لهذا. كان دلتاي يعني بالحياة كل ميادين المعرفة التي يسهم في ابداعها الانسان ، والتي هي مجال نشاطه ، لتصير بذلك موضوعا للفلسفة (هذه النقطة تعرضنا لها عندما تناولنا المقولات عند دلتاي).

وتأويل كولنجوود لدلتاي لا يصدق صدقا تاما على مواقف هذا الأخير. إذا كان هذا التأويل مفاده أن دلتاي سكلج (***) التاريخ والدراسات الانسانية عموما فان صحته تقتصر على بعض مؤلفات دلتاي وليس كلها. لقد اتخذ دلتاي من علم النفس اساسا لبقية الدراسات الانسانية ، ولكن هل هذا الموقف ينسحب على انتاجه كله ؟ لنبحث هذا.

ج - علم النفس والدراسات الانسانية عند دلتاي

يعتمد دلتاي في كتاباته الأولى على اهمية النزعة السيكلولوجية في تفسيرها للعلوم الانسانية ، انه يقول في أحد نصوصه التي تؤكد هذه المسألة :
"ان ما يمتاز به علم النفس من الناحية المنهجية هو أن موضوعاته ، أي محتويات الذهن [MENTAL CONNETIONS] واقع تعيشه مباشرة . إنه من

الضروري أن تعيش هذه المحتويات [CONNECTIONS] حتى تستطيع فهم الوقائع الاجتماعية والتاريخية والذهنية... تاريخ الدراسات الانسانية يعتمد على هذه المحتويات [CONNECTIONS] التي يوضحها خطوة خطوة". (51)

كان هذا رأي دلتاي في كتابة مدخل الى العلوم الثقافية سنة (1883) وفي الكتاب نفسه يذكر ذلك صراحة حيث يقول: "تطور الدراسات الانسانية مرتبط بتقدم علم النفس ، ذلك أن جعل هذه الدراسات في وحدة [كل] يعتمد على المجال [CONTEXT] الذهني حيث يرتبط كل منها بالآخر". (52)

الا اننا نلاحظ أن دلتاي في الكتابات المتأخرة حاول الابتعاد عن النزعة السيكولوجية ، والذي ساعده على ذلك هو المقولات الهيكلية كالروح الموضوعي ، ففي كتابة المعنون : بناء العالم التاريخي سنة (1910) يرفض الاقتصار على علم النفس بصفته العلم الذي يوفر المنهج الأسلم في الدراسات الانسانية . ويظهر موقفه الجديد في هذا الكتاب ، حيث يتراجع فيه عن كثير من الاطروحات التي كان قد اعتمدها في مدخل الى العلوم الثقافية.

لقد تبين لدلتاي في مرحلة متأخرة من انتاجه الفكري أن الفكرة التي تحمس لها في مرحلة من المراحل لم تعد مجدية معرفيا ، إن علم النفس الذي اعتبره ذات مرة الأساس* في تطور الدراسات الإنسانية لم يعد كذلك ، ولذلك لا يتردد دلتاي هذه المرة في إظهار نقائص المنهج السيكولوجي في الدراسات

الانسانية عند ما يقول بهذا الصدد : " عند ما يحاول الإنسان فهم حالاته الشعورية بالتركيز على نفسه فإن الحدود الضيقة لتوظيف المنهج الاستبطاني في معرفة الذات تظهر نفسها ، ذلك أن أفعاله وإبداعاته وآثارها على الآخرين هي وحدها لن تعلمه شيئاً عن نفسه " . (53) إذن فهمي متوقف على الآخر .

إن الاعتماد على المنهج السيكلوجي يعتبره الآن "خطأ عاماً" . (54) ويظهر هذا مثلاً بجلاء في دراسة المنظومة القانونية في فترة تاريخية معينة ، فنحن نعرف أن " القانون يجب أن يستمد صورة الأوامر المدعمة بقوة الجماعة بهدف تنفيذها " . (55) ولدراسة ذلك فنحن نعتمد على "الفهم التاريخي" . (56) الذي يكون مجال بحثه "البنية التي هي من انتاج العقل [الروح] والتي لها نظامها [PATTERN] وقانونها الخاص " . (57)

تبنى دلتاي في بناء العالم التاريخي بعض المقولات الهيجلية كمحاولة للتخلص من فكرة سكلجة المعرفة التاريخية وذلك بعد أن اتضحت له الحدود الضيقة لتوظيف المنهج الاستبطاني في معرفة الذات .

إن "العقل [أو الروح] الموضوعي" هو الافتراض الانطولوجي لإمكانية المعرفة في العلوم الانسانية [الروحية] ويعني به دلتاي "الأشكال المختلفة حيث ما يحمله الأفراد يتموضع في عالم الحس ... من هذا العالم الموضوعي للعقل [الروح] يتلقى الأنا تكوينية منذ طفولته المبكرة . إنه الوسط الذي يتم فيه فهم

الأخرين وعباراتهم ، ذلك أن كل شيء يتموضع فيه العقل يحتوي على شيء مشترك بينا وأنا والأنت . " (58)

يصبح للعقل بناء على ذلك وجود انطولوجي ، إنه يتموضع في المجتمع من خلال تموضع الظواهر الاجتماعية المراد دراستها ، ويظهر جليا في هذا السياق وجود ذات عارفة ، وموضوع للمعرفة بمعنى إمكانية المعرفة . ونذكر أن تخلي دلتي عن النزعة السيكلوجية كان له أسباب منها :

1 - تأثير هو سرل (59) الذي يظهر بكتابه أبحاث منطقية (60) سنة (1900 - 1901) الذي حاول فيه مؤلفة أن يدحض النزعة السيكلوجية ، ويرفض أن تكون أساسا للمنطق ، وهذا بعد انتقادات فريجة (G.FREGE) (1848 - 1925) لنزعة السيكلوجية في كتابه فلسفة الحساب سنة (1891).

2 - نقد الكانطية الجديدة (61) للنزعة السيكلوجية في المعرفة (62) إن قراءة كولنجوود لدلتي - ورغم ما في هذه القراءة من شطط - جعلنا نفهم موقف كولنجوود من التفسيرات السيكلوجية للتاريخ.

لقد ترتب عن هذا التأويل موقف آخر جديد هو الذي يعنينا في هذا السياق ، وهذا الموقف هو الإجابة عن السؤال الذي طرحناه في البداية عن موقف كولنجوود من التفسير السيكلوجي للتاريخ ؟ وإنه يتضح من خلال ما أوردنا ذكره في الأسطر القليلة السابقة ، أنه كان يرفض ويعارض بشدة أن

تعتمد الدراسات الانسانية ومنها التاريخ على التأويل السيكولوجي ، وهذا الرأي هو أحد المواقف الهامة التي تساعد على فهم بعض عناصر النظرية التاريخية عند كولنجوود.

لقد تتبعنا كيف أن كولنجوود يتفق مع منهج دلتاي الذي يرفض تناول التاريخ بنفس الطريقة التي تناول بها العلوم الطبيعية ، فالتمثل عند كولنجوود هو محاولة فهم الحادثة التاريخية الماضية وامتلاك الفعل التاريخي من الداخل ، فالفعل التاريخي له "زواياه الداخلية" كما يعبر عن ذلك كولنجوود ، وإن هذه الخصوصية لا يمكن أن تجعل من الفعل التاريخي رسدا لحوادث ماضية فقط.

الوثيقة والمعرفة التاريخية

إن الوثيقة التاريخية هي وسيلة البحث العلمي في التاريخ. "هي نقطة الابتداء ، والواقعة الماضية هي نقطة الوصول ، وبين نقطة الابتداء هذه ونقطة الوصول ينبغي المرور بسلسلة مركبة من الاستدلالات ... فيها فرص الخطأ عديدة ، واقل خطأ ، سواء إرتكب في البداية أو الوسط أو في نهاية العمل ، يمكن أن يفسد كل النتائج". (63) الوقائع التاريخية التي نتحصل عليها بفضل الوثائق لا يجب إعتبارها أجوبة نهائية على إشكاليات مطروحة في المعرفة

التاريخية ، لأن هناك دوما أسئلة تظل معلقة ، كما أن هناك أجوبة لا تقدم صورة نهائية لأسئلة مطروحة ، ووسط هذه الجدالات كلها يظل إستغلال الوثائق مستمرا لتوسيع أفاق المعرفة ولإنتاجها و"ليس التاريخ غير استثمار الوثائق". (64)

أثناء عملية استثمار الوثائق التاريخية يجب أن يحصل التجانس في التأويل بين نقطتين أساسيتين وهما الوثيقة (وهي الماضي) - لكنه الماضي الذي يحتاج الى عملية تأويل - وبين المؤرخ (وهو الحاضر) حيث أن هذين البعدين هما اللذان يشكلان الخطاب التاريخي المعرفي الجديد.

ويعني التجانس هذا عند كولنجوود أن لا تظهر تناقضات بين المعطيات الأولية (الوثائق) وبين النتائج النهائية وهذا بعد المرور بسلسلة من الاستدلالات المنطقية في البحث التاريخي . فعند ما نتحدث عن العملية التاريخية ونقول أنها تحتاج دوما الى عنصر الفهم والنقد ، فهذا يعني من ضمن ما يعنيه ، الإضافات التي تحصل من طرف المؤرخ إعتقادا على كيفية فهمه للمادة العلمية (الوثائق) التي هي بين يديه.

ولا نقصد بالفهم هنا تلك الانطباعات الذاتية التي قد يصدرها المؤرخ وإنما الفهم هنا قائم على الاستدلال العلمي والفهم الموضوعي للعملية التاريخية.

الهوامش

(*) فيلسوف انجليزي ولد سنة (1889) وتوفي سنة (1943)، عرف باهتماماته الواسعة بالتاريخ والآثار والفن الى جانب الفلسفة. تخرج من جامعة اكسفورد وقام بتدريس الفلسفة والتاريخ الروماني ابتداء من (1921)، كان حجة في حفريات وتاريخ بريطانيا في العصر الروماني عرف بتعاطفه مع المذهب المثالي رغم أنه تربى على افكار المدرسة الواقعية في اكسفورد إلا انه سرعان ما انقلب على تعاليمها. تأتي حركة الاهتمام بفلسفة كولنجوود في الأوساط المعرفية، خاصة بعد نشر بعض كتبه الهامة التي لم تظهر الا بعد وفاته ونخص بالذكر هنا كتابيه: فكرة التاريخ و فكرة الطبيعة وبعض مقالاته. وأمكن التعريف به بفضل بعض الدارسين الرواد منهم: ت. م نو كس (T.M KNOX) والان دوناغان (A.DONAGAN) وتوملان (TOMLIN).

(1) Auguste comte, « lettres à valat », cite par levy Bruhl, la philosophie d'auguste comte, (paris, 1900) p.270.

(**) هيبوليت تين (Hip polyte taine) (1893-1828)، فيلسوف ومؤرخ للادب والفن، أصدر كتاب: تاريخ الادب الانجليزي سنة (1864) وبه اشتهر باعتباره مؤرخا للادب وصاحب نظرية في تفسير الأدب، ويقع الكتاب في ثلاثة اجزاء. وتين فيلسوف وضعي فرنسي تأثر بوضعية اوجست كونت.

(2) Benedetto croce, theorie et histoire de l'historiographie, 1er ed, traduit de litalien par Alain du Four, (Genève : Librairie Droz, 1968) p.46.

(3) Thomas Buckle, « History of civilization in England » in Fritz Stern (ed), the varieties of History from Voltaire to the present, (cleveland and N.Y : the world publishing company, 1956), pp. 124-5.

(4) Quoted in Roy. J. Howard, three faces of Hermeneutics : An Introduction to current theories of inderstanding, (California : University of California Press, 1982), pp.12-3.

(5) Carl G. Hempel, Aspects of scientific explanation, (N.Y : the Free Press and London Collier Macmillan Publishers, 1965), p.231.

(6) Ibid, p.232. (التركيز في الاصل)

(7) Ibid, p.235. (التركيز في الاصل)

(8) Ibid.

(9) ر.ج كولينجوود ، فكرة التاريخ ترجمة بكير خليل ، راجعه محمد عبد الواحد خلاف ، ط 2
القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1968 (ص. 369.

(10) المصدر نفسه ، ص. 537.

(11) المصدر نفسه ، ص. 30.

(12) المصدر نفسه ، ص. 159.

(13) المصدر نفسه ، ص ص. 516-7.

(14) المصدر نفسه ، ص. 42.

(15) H.I MARROU, De la connaissance historique (Paris : Editions du seuil , 5eme ed,
1966), P.40.

(16) Ibid.

(17) ر.ج كولينجوود ، المصدر السابق ، ص. 42.

(18) المصدر نفسه ، ص. 435.

(19) المصدر نفسه ، ص. 429.

(20) Albert Shalom, R.G Collingwood Philosophe et Historien, (Paris : P.U.F, 1967), p.
503.

(21) Ibid, p. 505.

(22) ر.ج كولينجوود ، المصدر السابق، ص. 394.

(23) المصدر نفسه ، ص ص. 483 - 4 . (التركيز مضاف في النص).

(24) W. Dilthey, Selected Writings, ed, and trans By, H.P Rickman, (Cambridge :
Cambridge University Press, 1976), p. 236.

(25) Ibid, p. 237.

(26) Ibid, p. 192.

(27) Quoted by Rudolf Makkreel, in Dilthey, Philosopher of the Human Studies,
(Princeton University Press, 1975), pp. 380-1.

(28) Ibid, p. 381.

(29) W. Dilthey, op.cit, p. 173.

(30) Quoted in Hierbert Schnädelebach, Philosophy in Germany 1831-1933, Translated by Eric Mathews, (Cambridge : Cambridge University Press, 1984), p. 34.

(31) W. Diltthey, Op.cit, p. 177.

(32) Ibid, p. 176.

(33) Quoted in Karl - Otto Appel, Understanding and explanation, Trans by, Georgia warnke, (Cambridge : Mass and London, the Mit Press, 1984), p. 1.

(34) Ibid.

(35) Y. Droysen, « Art and Science », in Fritz Stern (ed), The varieties of History From voltaire to the present, (Cleveland and N.Y : The world publishing company, 1956), p. 142.

(36) W. Diltthey, Op.cit, p. 248. (التركيز في الاصل)

(37) Ibid.

(38) Ibid.

(39) Ibid.

(40) ر.ج كولنجوود ، المصدر السابق ، ص. 309 .

(41) المصدر نفسه.

(42) المصدر نفسه ، ص. 490 . (التركيز مضاف في النص).

(43) المصدر نفسه ، ص. 484 .

(44) المصدر نفسه ، ص. 507 .

(45) المصدر نفسه ، ص. 514 .

(46) المصدر نفسه ، ص. 377 .

(47) المصدر نفسه.

(48) المصدر نفسه ، ص. 306 .

(49) المصدر نفسه ، ص. 308 . (للتوسع في هذه النقطة أكثر يمكن الاطلاع على نص المقال كاملا ،

الذي كتبه كولنجوود في نقده لدلتاي في كتابه فكرة التاريخ من ص. 305 الى ص. 312)

(50) المصدر نفسه ، ص. 309 .

(**) فسر التاريخ تفسيراً سيكولوجياً.

(51) W. Diltthey , op. cit , p.91.

(52) Ibid, p.90.

(53) Ibid, p. 176.

(54) Ibid, p. 174.

(55) Ibid.

(56) Ibid.

(57) Ibid.

(58) Ibid, p.221.

(59) Herbert Spiegelberg, the phenomenological movement, 2 nd ed , vol .1 (the Hague: Martinus Nijhoff, 1965) , p.123.

(60) يقول (H.spiegelberg) في هذا الصدد أن "دلتاي أقام حلقات دراسية حول كتاب هوسرل ، ابحاث منطقية وذلك حوالي سنة 1904 في جامعة برلين".

(61) عنهم فندلباند (W.windelband) وهاينريش ريكارت (H.Rickert)

(62) Karl - otto Apel ,op. cit, p.4.

(63) لانجلوا وسينيوبوس ، " المدخل للدراسات الانسانية " في النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة : دار النهضة العربية ، >1963) ، ص. 44 .

(64) المراجع نفسه ، ص. 248.